

## ثقافة الإفلات من العدالة في السودان

عبد الله آدم خاطر\*

إن قرار المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية بطلب توقيف بحق الرئيس السوداني كان متوقعا للمراقبين، ولكنه مع ذلك أثار مشاعر متباينة، بعضها غاضبة خاصة في أوساط المؤيدين للمؤتمر الوطني الحزب الذي يترأسه البشير منذ التسعينيات من القرن الماضي. إن الشعور الذي انتابني تحديداً هو نوع من القلق انتهى إلى حالة من التأمل و التدبير و استقرار الواقع الثقافي في السودان.

إن أكثر ما أثار قلقي أن عادت بي التجارب إلى ألمانيا النازية التي وقفت في تحالفات انتهازية وعابرة تواجه العالم في أكبر حرب عالمية قضت على ملايين الأرواح وأضاعت الموارد و كلفت العالم الكثير من الآلام و أغرقته في العميق من المآسي. عندما قضى العالم على النظام النازي في مرارة، كان المتاح أمام المنتصرين تقديم رموز النازية إلى محاكمات دولية أبرزت البشاعة في سلسلة التعامل الهيكلي في الدولة النازية، وعملت أجهزة الإعلام والتنقيف والفنون، بما في ذلك السينما، على تعرية الواقع غير الإنساني الذي كان يمثله نمط التفكير النازي الذي اعتمد في قهره على الآخر على القدرة الأمنية العسكرية، والمال والإعلام، من خلال تلك التداعيات العدلية والإعلامية. اضطر الشعب الألماني أن يطأطئ رأسه للعالم، ويقبل بالاعتذار عن الفظائع التي ارتكبتها النازيون حتى اشتهر الألمان في كثير من الأوساط بأنهم "الاعتذاريون الدوليون". فما من مناسبة للتماهي الإنساني إلا ويضطر الألمان للاعتذار عما أقدم عليه النازيون من فظائع وما ارتكبه هتلر من جرائم. إن القلق الذي انتابني، إن طلب اوكامبو لن يمر هكذا دون أن يُدمغ السودانيون بأنهم انتهكوا حقوق الإنسان إلى حد الاستهتار بكل القيم الإنسانية. وستكون التهم الموجهة لعمر البشير مدخلاً لتشويه سمعة السودانيين برغم أنهم وقفوا



في مواجهة سياسات النظام بل وحاربوه. إن فرص الضحايا في قيادة مبادرات تجاوز الواقع بالصبر والاحتمال و المقاومة ستكون ضئيلة.

أما حالة التأمل التي انتابتي على نحو متصاعد ومكرر، أن طلب المدعي العام للمحكمة الجنائية أثارت تيارين واضحين في السودان، أحدهما الرفض المطلق للطلب و محاولة الإدانة للمدعي العام للمحكمة. و ثانيهما أن الطلب يمثل مخرجاً ضرورياً للسودان من أزمته بتأكيد أن العدالة أولاً. على صعيد الضمير الشخصي، فإن السلام الذي نتطلع إليه إذا لم تحرسه العدالة بإجراءاتها الدقيقة والمخيفة، فإن ذلك يشجع آخرين لانتهاك الحقوق إذا لم يكن في السودان ففي دول أخرى، وأيهما تقدم على الآخر، فإن الحصيلة النهائية أنهما يتكاملان من أجل استعادة المبادرة للضحايا وإعطائهم فرصة للحياة بالقصاص. مع قسوة الحياة، فإن الواقع الثقافي السوداني جذبني بشدة إلى التيارين المتعارضين، ولاحظت أن كلا منهما بدأ يستقطب مجموعات تجمعها الجغرافية و التاريخ والانتماء العرقي الإثني.

الحق، أن الدستور الانتقالي و الاتفاقات المختلفة قد أكدت على ظاهرة التعدد العرقي والتنوع الثقافي في السودان؛ وبحكم إنني من دارفور، غض النظر عن الآلام الشخصية والأضرار المجتمعية التي عشتها جراء النزاع المسلح في دارفور، فإن فكرة العدالة نفسها جزء عميق من تكويني الثقافي والنفسي. على تلك الخلفية، فإن طلب أوكامبو لم يخرج في وجداني الثقافي من كونه دعوة لتطهير الذات أمام المدعوين للمثول أمام المحكمة، سواءً أكانت محلية أو دولية، ذلك لأن البعد العدالي في الوجدان الدار فوري يتعدى إجراءات المحكمة إلى الامتثال بالضمير أمام القدرة الإلهية، وهي التي تحاكم، ليس تشفياً ولكن رحمةً ولطفاً، وذلك بقبول التحاكم والامتثال للحكم والاعتراف بالذنب كمدخل للتعافي و استعادة المبادرة الشخصية بعد ضعف ذاتي عبّر عن نفسه بارتكاب خطأ أو سلسلة أخطاء. إن الاعتراف بالجرم والامتثال للمحاكمة يمثل قمة احترام الذات في ثقافة دارفور. لذا، فإن من الألفاظ المشهورة في ثقافتها المحلية "الله يهديني". حسب ثقافة المسلم أيا كان وضعه، فإن شرب الخمر يعتبر جرماً، و لكن لا يتوقف الناس عادة عن تناوله جهراً أو سراً، ولكن حالما يواجهون باتهام بخروجهم على التقاليد الدينية بشرب الخمر، فإنهم يقرون أولاً بأنه جرم و يعملون على تجاوزه و يلحقون ذلك بالقول "الله



يهديني". إن نمط السلوك المشار إليه بالتطلع إلى الإقلاع عن الخطأ و الاستجابة لدواعي المحاكمة ضمن صميم ثقافة دارفور، دون النظر إلى الرفعة الاجتماعية أو السلطوية، وهكذا يذكر الجميع أنه عندما أعلنت الأمم المتحدة بإحالة الحالة الدارفورية إلى المحكمة الجنائية الدولية رحب زعماء التمرد في دارفور في مناسبات مختلفة بأنهم على استعداد للمثول أمام المحكمة إذا ما طلبت إليهم ذلك. لقد قال بذلك مني اركو مناوي وهو يشغل منصب كبير مساعدي رئيس الجمهورية. كما قال بها عبد الواحد نور أحد رافضي اتفاقية أبوجا. وقد رحب كلاهما بالتعاون مع المحكمة، ربما على سبيل المزايدة، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فإنه نابع من ثقافة الدارفوريين في التعامل والامتثال لمقتضيات العدالة كيفما كان الأمر.

من الناحية الأخرى، دهشت كذلك على ذات الخلفية الثقافية أن طلب اوكامبو، حتى قبل أن تتسلمه المحكمة، هاجمته بعض المجموعات ودعت إلى مسيرات رافضة، وهي بذلك تستبق المدعي العام للمحكمة الجنائية بالصاق التهم على المنسوبين عليها مجاناً و بقوة دفع إعلامية واسعة التأثير و الانتشار، بالرغم من أن أدوات التعامل السياسي والإعلامي والدبلوماسي والقانوني ضعيفة في التعامل مع هذه التجربة التي تمثل تطوراً إنسانياً ربيعاً، بأن يعمل الكل الدولي على حماية حقوق الإنسان حتى لو اضطر إلى توجيه التهام مباشرة إلى شاغري المناصب التي يستمدون منها القوة لقهراً الآخر و إذلاله، إلا أن الأمر عندما يُنظر إليه في ظلال التنوع الثقافي في السودان، فإن ارتكاب الخطأ والنجاح في الإفلات من العدالة يعد إنجازاً شخصياً باهراً يدعو الفتيات إلى مدح الحالة وتعظيم شأن المجرم القادر على الإفلات من الإجراءات العدلية. على سبيل المثال، فإن أشعار البطانة التي حوت الكثير من جيد شعر الهباتة، تعبر عن الافتخار عن قدرة الهباتي وهو مجرم بالقانون، على الإفلات من كل الإجراءات القانونية بما في ذلك العقوبة. لتأكيد أن الدعوة إلى الإفلات من العقوبة جزء من ثقافة بعض المجتمعات السودانية، فإنها لا تقف عند فخر مجرمين بانتهاك حقوق الآخرين، ولكن أيضاً تمتد إلى المرأة وهي تروج للاعتزاز بقدرة الحبيب والصديق على تحطيم كل الفرص أمام القانون من أن يطاله. في منطقة وسط السودان تميزت شواعر بمثل هذا الفخر والمديح. ولعل إحداهن قد أكدت تلك المعاني بوضوح عندما قالت "إن شاء الله عندي عشرة



أولاد أب ... يقتلو الزول ويتناكرو"، ويعني ذلك ببساطة أنها تفتخر بأن تؤسس محبتها على من يستطيع ارتكاب جريمة القتل ويتمكن من الإفلات من المحاكمة والعقاب بكل الوسائل المتاحة.

الحق، نحن نعيش في بلد التنوع، لذا ليس مستغرباً أن نختلف في استجابتنا لمقتضيات التعامل مع العدالة في أي مستوى من المستويات. وعلى تلك الخلفية، فإن طلب اوكامبو قد أتاح أمامنا فرصة واسعة للبحث والاستقصاء والتعرف على أن العدالة بمعانيها ومبرراتها التقليدية وهي تُمارس أمام ضحايا العنف و الانتهاكات، هي التي تجعل لبلدنا فرص أن تكون وحدتها جاذبة وديمقراطيتها متراضٍ عليها.

\* عبد الله آدم خاطر، ناشط في المجتمع المدني، وعضو اللجنة التنفيذية لاتحاد الكتاب السودانيين.

